فكر

داغ نِكلاوس هاس: ما قدّمه العرب لعصر التنوير

إعداد زياد منى

استهل داغ نِكلاوس هاس كتابه «نجاح وكتمان ـ العلوم العربية والفلسفة في عصر التنوير» (Success and suppression: arabic sciences and philosophy in the renaissance ـ منشورات جامعة هارفرد ـ 2016) بقول يلخص محتواه هو: «في المدرسة الثانوية التي تعلمت فيها في مدينة كيل، احتلت نسخة من لوحة أنطون منغ العائدة إلى القرن الثامن عشر «مدرسة رفائيل الأثينية» صدر قاعة المحاضرات، مذكرة الجميع بحاملي مشعل الحضارة الحقيقيين. وفي فترة لاحقة، تبين لي، وأنا أدرس اللغة العربية، أن أبطالي في الثقافة العائدين إلى عصر النهضة الإغريق واللاتين، كانوا، في أحيان كثيرة، على خلاف مرّ، مع أبطالي الجدد وهم الفلاسفة والعلماء العرب».

لكن أين تكمن الحقيقة؟ هل حقاً كان عصر النهضة في القارة الأوروبية ذا أصول إغريقية ولاتينية فقط، ولم ينهل من علوم العرب والمسلمين، بل رفضهم لأسباب علمية؟ أم أن رفض إنسانيّي (Humanists) ذلك العصر أساسه فكري/ إيديولوجي؟ وفي حال كانت الإجابة تكمن في السؤال الأخير، فهذا أمر خطير ينتهي بالعلم إلى أجندة إيديولوجية، وعلينا في هذه الحالة أن نعدّ كل «علم» ينطلق من مفكرة إيديولوجية تزويراً للتاريخ.

الأكاديمي والشاعر الإيطالي فرنشيسكو بترارك، الذي يعد مطلق عصر التنوير في القرن الرابع عشر، كتب في عام 1370 ت س، «من غير السهل إقناعي بأن أي أمر جيد يمكن أن يأتي من بلاد العرب». وكتب الطبيب الألماني وعالم النباتات ليونهارد فوكس في عام 1535 «ليس بإمكان المرء العثور في إنتاجات الإغريق، على ما هو ليس بصاف وعلمي، وليس بمصقول ومنتج بأعلى درجات الفطنة، لكن ليس بإمكان المرء العثور على أي أمر لدى العرب ما هو ليس بعفن وزنخ».

أما الطبيب الألماني والجغرافي والفلكي لورنتس فريز من إقليم الإلزاس، وصاحب مؤلف «مرآة الطب» (spiegel der arznei) الذي صدر في ثماني طبعات بين عامي 1518 و1557، فكتب في عام 1530 «ترى أن علم الطب قد حطم، وأن أكثر الهراء خطورة يتم استجلابه من العالم السفلي». فابن سينا يُدان، ويتم احتضان أكاذيب أبوليوس (أفولاي، 124-170 ت س. خطيب وفيلسوف أفلاطوني، وصاحب مؤلف «الحمار الذهبي»). أما اللغوي الفرنسي غيوم بوستل الذي أتقن العربية والعبرية والسريانية واللاتينية والإغريقية القديمة، وعالم الفلك، وعالم القبالا، والدبلوماسي والبرفسور ومن أتباع الدين العالمي، ومبعوث الملك الفرنسي فرنسيس الأول إلى بلاط السلطان العثماني سليمان القانوني ومؤسس التحالف العثماني ـ الفرنسي، فكتب: «ما تعثر عليه في كتابات ابن سينا مشرقاً وواضحاً في صفحة أو اثنتين، فإن غالبن (الطبيب والجراح والفيلسوف، وطبيب الإمبراطورية الرومانية - 162-217 ت س) بالكاد يكفيه خمسة أو ستة مجلدات»، والقوائم تطول.

يضيف الكاتب إنّ إنسانيي عصر النهضة اقتنعوا أكثرنا بأن تعليقات الكتاب الإغريق على أرسطو أفضل من ابن رشد، وأن جيوفاني مرندولا كان محقاً في دعوته لنا لنبذ الكتابات العربية في علم الفلك والعودة إلى مؤلف بطليموس. بهذا، فإن عصر النهضة شكل مرحلة الانفصال عن المراجع العربية، إلى درجة أنّ العلماء العرب الذين كانت أسماؤهم تتردد على لسان كل طالب علم مسيحي في تلك القرون، قد محيت من الذاكرة الثقافية الأوروبية. وبعد هذا تطوراً خطيراً إلى درجة استدعى تدخل «الجمعية البرلمانية للمجلس الأوروبي» في عامي 1991 و2002، داعية إلى تغطية أشمل في المناهج المدرسية لإسهامات الحضارة الإسلامية في الثقافة الأوروبية.

يوضح المؤلّف أنّ ثمة اتجاهين في كيفية مقاربة موضوع إسهامات الحضارة العربية ـ الإسلامية في عصر النهضة؛ أولهما ينفي وجود أي تأثير انطلاقاً من الادعاء بأن الترجمات من العربية إلى اللاتينية تمت في فترة متأخرة. أما الاتجاه الآخر، فيشدد على تأثيرها الكبير، وهي تمت ـ في ظن الكاتب وفي ظننا ـ لأهداف سياسية وجب اعتبارها فضيحة. لكن الدراسة الحالية في هذا المؤلف المهم، وهي الأولى في مجالها، التي حظيت باهتمام الأوساط العلمية في الغرب، فتشدد على أهمية مقاربة الموضوع من منطلق غير إيديولوجي، والتركيز على دراسة ما توافر من ترجمات وعدد الطبعات، وتحليل النصوص العربية الأصلية في موضوعات محددة، ومن ثم مقارنتها بإنتاجات عصر النهضة في المادة ذاتها، مما يسمح في نهاية المطاف بمعرفة مدى توافر تأثير أو عدمه. أي أن الكاتب يشدد هنا على ضرورة الاستعانة بعلم اللغات أيضاً لتحليل النصوص ذات العلاقة. ومن هنا يأتي عنوان المؤلف «النجاح والكتم». والهدف ـ دوماً بحسب الكاتب ـ تقويم نجاحات العلوم العربية والفلسفة العربية في عصر النهضة وكتمها.

يشدّد الكاتب على أنّ مؤلفه يهدف إلى التحرك في فترة ما بعد عصر النهضة، لفهمها كظاهرة ثنائية الوجه عندما يتعلق الأمر بكيفية استقبال الفكر العربي. إذ يرى أنّ عصر النهضة شكّل المرحلة التي وصل فيها التأثير العربي إلى أقصى درجاته من ناحية، والمرحلة التي بدأ الغرب ينسى فيها ذلك التأثير من ناحية أخرى. وللوصول إلى هدف هذه الدراسة، عمد الكاتب إلى تقسيم المؤلف إلى جزءين. في الجزء الأول، حلّل محاولات علماء النهضة لتوسيع انتشار العلوم العربية عبر الطبعات والبيوغرافيا والترجمات، فيما خصص الجزء الثاني للتوضيح تباين الخطاب الجدلي بين أنصار التقاليد العربية والإغريقية بتطور العلوم والفلسفة الداخلي. أما النقطة التي يشدد عليها الكاتب، فهي ليس ما كان في نية الكتّاب قوله إنّما ما كتبوه فعلاً. على سبيل المثال، هل استخدموا النظريات العلمية العربية أم لا؟ وهل حاولوا عن وعي نشر العلوم العربية أم أنهم حاولوا القضاء عليها؟ ما الأسباب الداخلية والعلمية التي دعتهم إلى تبني النظريات العلمية العربية أو رفضها، وما مكاسب النهضة أو خسائرها الناتجة من التبني أو الرفض؟ إضافة إلى ما سبق، فإن الكاتب مهتم أيضاً بدراسة الخلفيات الاجتماعية لقبول النظريات العلمية العربية في عصر النهضة، مقارنة بالأوساط الفكرية والاجتماعية للوسط الذي عاش فيه الذين تقبلوها.

انطلاقاً من الأهداف المحددة للعمل، فإن المؤلف يحوي فصولاً عدّة. يحمل الجزء الأول عنوان «حضور التقاليد العربية»، ويضمّ الفصل الأول «تقديم ـ النسخ والمناهج» الذي يستعرض جذور التقاليد العلمية العربية في أوروبا واستمرارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. كما يستعرض هذا الفصل نجاح طبعات الترجمات اللاتينية للمؤلفات العلمية العربية وانتشارها وتجذر العلماء العرب وأعمالهم في المناهج التعليمية الجامعية في أوروبا. في الفصل الثاني «سير قائمة المراجع/ الببليوغرافيا: آثار رجال العلم»، يتعامل مع بيوغرافيا الكتاب العرب. في هذه المرحلة، كان الاهتمام في أوروبا بأهل العلم العرب وبنتاجاتهم أكبر من أي وقت مضى. يتقصى الفصل جذور هذا النشاط في تاريخ الطب، ويحلل إسهامات إنسانيي عصر النهضة للبيوغرافيا العربية، ويصف صور العلماء العرب المشهورة كما ترد في كتاب «بيوغرافيا عصر النهضة». تحت عنوان «علم فقه اللغة/ الفيلولوجيا: برامج المترجمين وتقنياتهم»، يتقصى الفصل الثالث إنجازات المترجمين من العربية إلى اللاتينية ومن «العبرية» (المترجمة أصلاً من العربية - والمزدوجتان لنا) إلى اللاتينية.

يصف الكاتب هذه الإنجازات بأنها مظهر رائع من مظاهر ثقافة عصر النهضة، وقد بدأت حوالى عام 1480، أي بعد أكثر من مئة وخمسين عاماً على بدء محاولات العصور الوسطى نقل الإنجازات العلمية العربية إلى اللاتينية. وقد خصص الكاتب قسماً من الفصل لتحليل الجذور الاجتماعية لأكثر من عشرة مترجمين ولداعميهم ولجمهورهم، مقارناً تقنية ترجماتهم بالمبادئ التي أعلنوها في مقدماتهم ورسائلهم. إذ تبين للكاتب أن العلماء كانوا منخرطين في حركة الترجمة، لكنهم لم يكونوا أفضل الخبراء عندما يتعلق الأمر بالنصوص. في الجزء الثاني «الإغريق ضد العرب»، خصص الكاتب الفصل الرابع «طب الأعشاب» (MATERIA MEDICA) ـ الإنسانيين عن المُلَيَّنات) للحديث في جاذبية النظريات العربية عن طب الأعشاب في كتابات الأطباء الإنسانيين وعلماء النبات. بعض الكتاب حاولوا التغلب على ما وصل إليه سابقوهم من العلماء العرب، لكنهم واجهوا مشاكل كثيرة في هذا، ما أدى في نهاية المطاف إلى إخفاق محاولة العودة إلى علم طب الأعشاب اليوناني. يوضح هذا التقصي أيضاً أن المحاولات المتحالفة لطمس التقاليد العربية العلمية في هذا المجال، شكلت محفزاً لتطورات جديدة في الصيدلة وعلم النباتات. الفصل الخامس «الفلسفة: مؤيدو ابن رشد وأعداؤه»، خصصه الكاتب للفيلسوف العربي الأكثر تأثيراً، وهو القرطبي ابن رشد الأندلسي (1129 ـ 1198 ت س). انقسم إنسانيّو عصر النهضة بخصوصه إلى معسكرين متضادين متعادين على نحو شديد. يتناول الفصل، بالحديث والبحث، ابن رشد الفيلسوف وابن رشد المعلق. يشدد الكاتب على أن المعارضين لفكر ابن رشد نقدوا قوله الذي يفضي إلى أن الروح منقسمة إلى قسمين اثنين: القسم الأول شخصي يتعلق بالشخص، والقسم الثاني فيه من الإلهية ما فيه. وبما أنّ الروح الشخصية قابلة للفناء، فإن كل الناس على مستوى واحد يتقاسمون هذه الروح وروح إلهية مشابهة. وقد أخضعوا نقدهم لها، لفترة محددة، لضغط الكنيسة التي كانت تخشى من أن يؤثر انتشارها في مبادئها. فهو بالتالي من القائلين بالحقيقة المزدوجة بينما عقيدة الكنيسة تعتقد بالخلود الفردي (Unicity) واستنكرت الأولى في عام 1270. كما بحث الكاتب في هذا الفصل في تعليقات ابن رشد على أرسطو وتأثيراتها الجوهرية في قراء عصر النهضة. يركّز الفصل السادس والأخير «علم الفلك: بطليموس ضد العرب»، على النقاط التي كانت الأكثر مدعاة للنقاش والاختلاف بين المعسكرين، العربي واللاتيني. كما يتناول بالحديث كيفية تقبل النظرية العربية عن اقتران زحل بالمشترى، وهي التي شكلت أساس تاريخ التنجيم والفلك العالمي. وقد تبين للكاتب أن ذروة تأثير نظرية الاقتران العربية كانت بين عامي 1550 و1560. يلفت الكاتب نظر القراء إلى أنه ركز في مؤلفه على ثلاث مواد هي الفلسفة والطب والفلك، ولم يتعامل مع جوانب المادة كافة. ومن ذلك، على سبيل المثال، العلوم العربية في الجبر والكيمياء. إضافة إلى ذلك، فإنه لم يتعامل مع موضوعات اكتشف دور العرب في إبداعها ومن ذلك الدورة الدموية عند ابن النفيس (ت 1288 ت س). من المهم في هذا العرض أيضاً التنويه إلى أن الكاتب أثرى عمله بمجموعة من الجداول ومنها قائمة مفصلة بالمؤلفات العربية التي توافرت باللاتينية وعدد النسخ وكذلك قائمة بالطبعات الصادرة حتى عام 1700 سنورد بعضها. في عام 1412، وضع الطبيب الألماني أمبلونيوس رتينك قائمة بالمؤلفات والمخطوطات في مكتبته الخاصة والتي حوت 636، موزعة على النحو الآتي: 40 مؤلفاً باللغة اليونانية، و35 مؤلفاً باللاتينية القديمة، و42 مؤلفاً عربياً. أما البقية، فكانت بلاتينية الكنيسة. آخذين في الاعتبار أن الترجمة والطباعة كانتا أموراً تجارية محض وتتم وفق الطلب. تالياً هنا بعض نسخ المخطوطات العربية المترجمة إلى اللاتينية حتى عام 1700: الطبيب ابن وافد 23 طبعة، الفلكي الخياط 4 طبعات، الطبيب الزهراوي 33 طبعة، الفلكي أبو معشر 8، الفلكي القبيسي 13، الفارابي 4، الكندي 25، ابن زهر 15، ابن رشد 114، ابن سينا 78، قسطا بن لوقا 25، جابر بن حيان 16، ابن رضوان 13، حنين ابن إسحق 27، ابن ماسويه 72، سهل بن بشر 9. يوضح الكاتب أنه إضافة إلى النسخ المترجمة إلى اللاتينية، ظهرت في القرن السادس عشر نسخ مترجمة إلى لغات أوروبية أخرى، ومن ذلك في مدينة ليون الفرنسية، والبندقية الإيطالية، ونرمبرغ الألمانية، وبازل وباريس وشتراسبورغ. ينهي الكاتب عمله بالتعامل مع نتائج جدل عصر النهضة المعادي للعرب، وما إذا قاد إلى الانتقاص من التقاليد العربية فيه، وبالتالي ما إذا كانت أسباب الأخير علمية أم غير ذلك؟

أخيراً، نورد بعض الملاحظات على هذا المؤلف الذي يبلغ حجم الكتاب فيه نصف عدد صفحاته، والبقية هوامش ومصادر. لقد اعتمد الكاتب، وهو أستاذ تاريخ الفلسفة في «جامعة فرتسبورغ»، على النصوص الأصلية اللاتينية الوثنية والمسيحية واليونانية، ما قد يشكل مشكلة لدى بعض القراء الذين ليس لهم دراية بهذه اللغات. وفي الوقت الذي يمكن عد هذه نقطة ضعف في المؤلف، وجب عدها في الوقت نفسه نقطة قوة. إذ بما أنّ الكاتب يعرض وجهة نظر جديدة لم يتطرق إليها أي عالم من قبل، فمن الضروري، من منظار علمي، إبراد النصوص الأصلية ذات العلاقة، إثباتاً لوجهة النظر الجديدة ودعماً للآراء التي يطرحها، بما يرفعها إلى منزلة الحقائق. يمكن للقارئ الذي لا يعرف تلك اللغات القديمة التمتع بهذا المؤلف الفريد، والتركيز على نقاط الجدل فيه، ويمكن لأي باحث في مجال تاريخ العلوم العربية الاستفادة منه. لقد جلب هذا المؤلف تعليقات إيجابية كثيرة، ولم نعثر على أي رأي ينتقده. حرص الكاتب على حيادية العلم ولم ينجرّ في عمله بإطلاق سراح المساجين السنة في سجن بادوش، ومارسوا مذبحة جماعية بحق السمثمة سجين شيعي مسلم.

أول ما قامت به قطعان إبراهيم البدري السامرائي هو تجميع الإيزيديين،

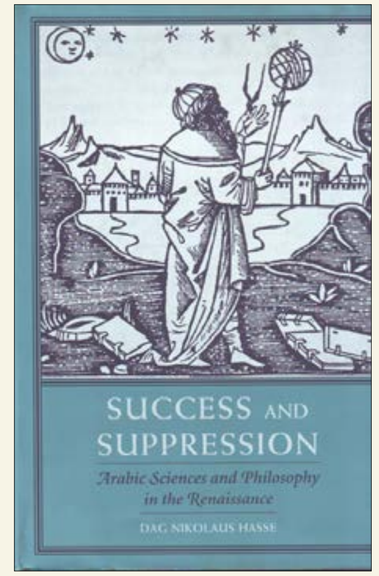

بحث في تعليقات ابن رشد على ارسطو وتأثيراتها الجوهرية في قراء عصر النهضة

تاريخ سياسي

لورا ربسون: هكذا هندس المستعمِر «الشرق الأوسط»

في كانون الأول (ديسمبر) عام 1944، ألقى أحد كبار مجرمي الاستعمار البريطاني، ونستون تشرتشل خطاباً في مجلس العموم قال فيه، ضمن أمور أخرى: «كما تبين لنا، فإن الطرد هو الطريقة الأفضل والأكثر ديمومة... ستتم عملية تنظيف كاملة». أما الرئيس الأميركي روزفلت، فقد أخبر أنطوني إيدن، رئيس وزراء بريطانيا الفاشل، والشخصية التراجيدية بطل هزيمة السويس: «ستتم إزالة البروسيين من شرقي بروسيا بالطريقة ذاتها التي تمت فيها إزالة اليونانيين من تركيا عقب الحرب». وبعد ذلك بسنوات، علق مهندس تقسيم شبه القارة الهندية اللورد مونتباتن الذي قتلته منظمة الجيش الجمهوري الإرلندي على تلك الجريمة، التي قادت إلى طرد نحو 15 مليون مواطن من أوطانهم، إضافة إلى نحو مليون ضحية، وماسي لا نهاية لها، علّق بالقول: «لقد كانت أكبر عملية إدارة (administration) في التاريخ. أما في بلادنا، في بلاد الشام، فإن عمليات الطرد والتقسيم لا نهاية لها. الاستعماران البريطاني والفرنسي، عملا على تقسيم المناطق التي احتلاها واستعمراها، تحت تعريف عنوانه «الانتداب» وعلى تقسيم مستعمراتهما الجديدة في بلاد الشام والعراق، ثم على تقسيم كل منها في عملية لا نهاية لها، طبعاً دوماً حسب لورا ربسون مؤلفة كتاب «دول الفصل ـ الترحيل والتقسيم وصناعة الشرق الأوسط» (States of separation: transfer, partition, and the making of the middle east ـ يحوي بعض المصورات والخرائط ـ جامعة كاليفورنيا ـ 2017).

كما طرح الاستعمار الفرنسي تقسيم الدولة السورية «الجديدة»، التي هي قسمت أصلاً من بلاد الشام إلى لبنان وسوريا وفلسطين وعبر الأردن، إلى دويلات مذهبية درزية وسنية وعلوية. بناء على الطرح الاستعماري الذي دعا إلى تأسيس دول إثنووطنية، فقد عملت القوتان على فرض التقسيم الجديد، وفق خطوط إثنية ودينية ومذهبية وعرقية، حقيقية كانت أو وهمية. على سبيل المثال، استجدّت مشكلة السريان في بلاد الشام وفي شمالي العراق، الذين كانوا ضحية مجازر تركيا أتاتورك، فطرح المستعمر ـ حكومات وأفراداً ـ خطة ترحيلهم (ترانسفير) إلى جهات بعيدة كل البعد عن أوطانهم، حيث «عثروا» لهم على «أوطان» جديدة لهم في البرازيل وجنوب إفريقيا وتمبكتو وغويانا البريطانية.

المستعمران البريطاني والفرنسي طرحا في الوقت نفسه ترحيل الأرمن إلى سوريا (ولبنان) وتوطينهم في مناطق حدودية، ليشكلوا حزاماً استعمارياً كفيلاً بإثارة المشاكل على نحو دائم (وفق تصورهم طبعاً) ما يمنح لندن وباريس ذرائع التدخل، دوماً بحجة الدفاع عن «الأقليات». أما الدولة التركية الأتاتوركية، فقد طرحت ترحيل كل الأرثوذكس إلى اليونان، وهو ترحيل وفق خطوط دينية. إذ طالبت بضم سكان مرسين العرب الأرثوذكس إلى قائمة المرحلين إلى اليونان. ووجب عدم إهمال قيام بريطانيا بخلق كيانات هزيلة ومحميات خلقت على نحو مصطنع في الخليج الفارسي، تناسب تجمعاً عشيرياً مرتبطاً بها وخادماً لمشاريعها الاستعمارية في المنطقة، وهو ما حاولت تنفيذه في اليمن الجنوبي، لكنها أخفقت بعدما تمكنت جبهة التحرير من هزيمة العملاء. الأمر ذاته فرضه الاستعمار الجديد حديثاً على دولة يوغسلافيا حيث شجع تقسيمها إلى صربيا وكرواتيا والبوسنة ومقدونيا وسلوفينيا، ومن ثم الجبل الأسود «مونتنيغرو»، ومن ثم إعادة تقسيم بعض المنتوج الجديد، دائماً وفق خطوط إثنية ودينية ومذهبية وعرقية، حقيقية كانت أو وهمية.

وكنّا عرضنا في هذا المنبر مؤلفاً عن مشكلة بورما (ميانمار) والروهينغا، وجذوره في ممارسات الاستعمار البريطاني المولع بالتقسيم الإثني والعرقي والديني والمذهبي. والطرح الحالي الآتي من واشنطن وكواكبها الأوروبية لتقسيم سوريا والعراق ليس سوى فصل جديد في حركة استعمارية مستجدة بدأت منذ انتهاء الحرب الإمبريالية الأولى، وتحلل الإمبراطورية العثمانية. الهدف، ليس مساعدة ما يسمى «الأقليات»، وإنما استخدامهم ذريعة للتدخل المستمر في شؤون المستعمرات السابقة، والحفاظ على النظام الاستعماري، لكن بشكل «جديد». ولا ننسى أن التقسيم وفق أسس عرقية هو ما قاد إلى نشوء نظام التمييز العنصري في جنوبي إفريقيا ورودبسيا سابقاً («زيمبابواي». الهدف الآخر من عمليات الترحيل المقترحة والمنجزة، هو خلق دول أو كيانات سياسية مصطنعة عازلة (كما هو حال أفغانستان التي اجترحها الاستعمار البريطاني لتكون دولة عازلة بينه وبين روسيا القيصرية الساعية دوماً لنيل إطلالة على البحار الدافئة، كما يقال)، تساعد الاستعمار في ديمومة احتلاله وتأثيره في مختلف بقاع العالم. من الأمور الواجب لفت الانتباه إليها أن عمليات الترحيل القسرية تمت برعاية الأداة الاستعمارية «عصبة الأمم» كما تتم حالياً برعاية أسمية للأداة الاستعمارية الجديدة، أي «الأمم المتحدة».

ولا يمكن في هذا العرض ذكر عمليات الطرد والتهجير القسري الذي قام به الاتحاد في السوفياتي عقب الحرب العالمية الثانية في غربي البلاد، ومن ثم التهجير القسري لنحو 12 مليون ألماني من أوطانهم ومدنهم وقراهم وحقولهم في بروسيا الشرقية وإقليم السوديت.

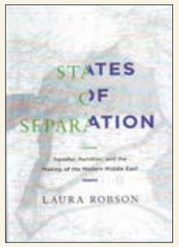

الأرجنتين وشرقي إفريقيا كانتا الفضاء الأول لمشروع تأسيس وطن يهودي/ صهيوني

كما وجب عدم نسيان قيام ألمانيا النازية بترحيل ألمان إلى ما ادعت أنها أوطانهم الأصلية في شرقي أوروبا، وتوطينهم هناك تمهيداً لاستعمار المنطقة بحجة الحاجة إلى مجال حيوي. النتيجة هي استمرار المشاكل في بقاع كثيرة في العالم المستعمَر، في إفريقيا وآسيا على نحو خاص.

مؤلفة الكتاب لورا ربسون وهي أستاذة مساعدة في مادة التاريخ الحديث للشرق الأوسط في «جامعة بورتلاند»، أولت قضية فلسطين اهتماماً خاصاً حيث استعرضت المراحل التي مرت بها مختلف الدعوات لتأسيس وطن يهودي/ صهيوني، في فلسطين، مذكرة بأن الأرجنتين وشرقي إفريقيا، شكلت المحطة الأولى التي اختيرت فضاءً لذلك المشروع الاستعماري ضمن مشروع الترانسفير أو الترحيل. لكن ذلك اقتضى أولاً وقبل كل شيء عد يهود (الأصح: إشكنازي) القارة الأوروبية أقليات، وهذا ما عدّته الكاتبة ـ وعن حق ـ مساهمة فعالة في عزلهم وبالتالي إقناعهم بأنهم لا ينتمون إلى أوطانهم، ومن ثم تهجيرهم، إلى فلسطين.

لنتذكر هنا قول اللغوي الألماني الإشكنازي الشهير، أستاذ الأدب في «جامعة دريسدن»، فيكتور كلمبرر (1881-1960) في مؤلفه الفذ «لغة الإمبراطورية الثالثة» (بالألمانية: الرايخ Lingua Tertii Imperii ـ صادر عام 1944) إن هتلر تعلم لغته العنصرية من هرتسل. واضح أن هرتسل تعلم لغته العنصرية من الاستعمار البريطاني، وتحديداً من أستاذه ومعلمه أسقف القنصلية البريطانية في فيينا، فالصهيونية المسيحية ولدت في بريطانيا في نهايات القرن الثامن عشر على إثر الثورة الفرنسية، وهذا الجانب أهملت الكاتبة ضمه إلى عملها المهم للغاية.

في مرحلة لاحقة، وعندما أخفقت محاولات التهجير الوحشية والهمجية والدموية في كثير من الأحيان، لجأت بريطانيا إلى حل استعماري آخر، وهو التقسيم، والذي طرحته بخصوص فلسطين (ومن هنا فإن ما يسمى تضليلاً «حل الدولتين»، هو طرح استعماري في المقام الأول والأخير)، ثم أكملت الحركة الصهيونية العمل الإجرامي بتهجير القسم الأكبر من الفلسطينيين، بالتآمر مع أنظمة سايكس بيكو، وفي الوقت نفسه تهجير اليهود العرب من أوطانهم في شمالي إفريقيا وسوريا والعراق ولبنان واليمن. كما وجب ملاحظة عملية توطين السريان في شمالي العراق بالقرب من الكرد، ولسنا بغافلين عن المشاكل المستعصية بين الطرفين إضافة إلى اضطهاد كرد اليزيديين في برزانيستان، وهو موضوع قائم بذاته.

توثيق

الايزيديات في مواجهة دولة البغدادي

من الصعب والمؤلم في الدرجة الأولى الحديث عن معاناة العراقيين والسوريين الذين وقعوا تحت سلطة تنظيم إبراهيم البدري السامرائي (أبو بكر البغدادي). ظلم ذلك التنظيم اللابشري، وجرائم وحوشه من الزومبي، الذين يسمون أنفسهم مجاهدين، تفوق كل تصور. في الواقع، هم ليسوا أكثر همجية من كثير من الأنظمة، وليسوا أكثر دموية من ممارسات الاستعمار، لكن خيال تلك القطعان فاق غيره. إذ أن كل تنظيم يأتي إلى المنطقة، متسلحاً بالدين، غطاءً لفظائعه وجرائمه، حتى تلك التي نهت عنها الأديان، يكون أكثر وحشية ودموية مما سبقه. رأينا ذلك على يد الخمير الحمر في كمبوديا، وفي رواندا، ورأيناه في ممارسات الاستعمار البريطاني والفرنسي، ومن بعدهما الأميركي وممارساته في مختلف بقاع العالم. الوحشية اللابشرية بدأت في الثاني من شهر آب (أغسطس) عام 2014. كان الإيزيديون يحتفلون في بلادهم التي هجر بعضهم إليها خلال فترة حكم صدام حسين، بانتهاء فترة الصوم، حين ظهرت طلائع قطعان «داعش» الآتية من الموصل الذين قاموا بإطلاق سراح المساجين السنة في سجن بادوش، ومارسوا مذبحة جماعية بحق السمثمة سجين شيعي مسلم.

أول ما قامت به قطعان إبراهيم البدري السامرائي هو تجميع الإيزيديين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ثم فرز الرجال وقتل الآلاف منهم في مذابح جماعية أو إلقاؤهم في حفر حيث تركوا ليموتوا جوعاً وعطشاً أو بسبب ضربة الشمس الحارقة، والبدء بتصنيف النساء تمهيداً لاغتصابهن واستعبادهن أو لبيعهن. تم فصل الأم عن بناتها، والفتيات عن أهلهن وأقاربهن. تشيركاثي أوتن في كتابها «الايزيديات في مواجهة دولة إبراهيم البدري السامرائي» (With ashes on their faces: yezidi woman and the islamic state ـ أوار بوكس ـ 2017) إلى أن ما يقارب الستة آلاف وخمسمئة إيزيدي، معظمهم من النسوة، تم استعبادهم ونقلوا إلى السجون ومعسكرات التدريب في العراق وسوريا. قلة قليلة تمكنت من تحدي السجان والفرار حيث وصلت إلى مناطق آمنة، ليروين معاناتهن تحت حكم الدولة الإسلامية، أو «دولة» الخلافة، على ما يقال.

يروي المؤلف مشاهدات عيان، على لسان مجموعة من النساء والرجال من إيزيديي العراق الذين وقعوا في قبضة البدريستان (البدري ـ ستان)، عندما احتل الموصل وتلعفر وسنجار والقرى والبلدات الإيزيدية في شمالي العراق، وهروب قوات البيشمركة المتمركزة في بلدة كوجو، أمام زومبي الدواعش (البيشمركة قوات كردية أسسها ضابط إسرائيلي في الستينيات بالتعاون مع مصطفى البرزاني والد حاكم برزانيستان، وسنعود إلى هذا الموضوع في مقالة منفصلة).

وكلنا نعلم أن مسعود هرع إلى طهران مستجدياً المساعدة العسكرية التي حصل عليها فعلاً بعدما كادت إربيل تسقط في يد قطعان الزومبي الداعشية، لكن ما هو قد ارتد على اليد التي أطعمته وحمته.

الإيزيديون هم جماعة دينية، كردية اللسان، ديانتها تضم طقوساً ومناسك مأخوذة من الأديان المسماة إبراهيمية، منها العمادة، على سبيل المثال. لهم مواقع دينية كثيرة في بلادهم، يزورونها في الأعياد، التي يتبادلون خلالها الأحاديث وأخبار أفعال قديسيهم، وكذلك مشاكلهم ومعاناتهم غير المحدودة من مختلف الأنظمة، مع أنه من سخريات القدر أن يكون وضعهم إبان حكم صدام حسين أفضل بما يقاس عما هو عليه الآن، وكل ذلك وفق الكاتبة، الصحافية البريطانية المقيمة في كردستان العراق في الأعوام الأربعة الماضية، التي تنقل مشاهداتها عن عمليات محاربة زومبي البدريستان لصحف بريطانية أميركية.

لا شك في أن كل العراقيين (والسوريين طبعاً) عانوا كثيراً من همجية قطعان داعش، لكن للإيزيديين نصيب أكبر كونهم «كفاراً» وجبت إبادتهم، وفق تأويلات القاعدة الوهابية، التي هي الأب الروحي للدواعش. لذا فإن هذا المؤلف يحوي روايات تلك الوحشية المضاعفة، من قتل جماعي للرجال الإيزيديين، واغتصاب جماعي للنساء والفتيات الإيزيديات.

لقد قيل: ثمة ثابتين في تاريخ جرائم الإبادة، هما الاعتراف المتأخر بها، وتصوير الضحايا، والنسوة على نحو خاص، أنهن سلبيات تجاه المجرمين. لكن هذا المؤلف يروي شجاعة الإيزيديات في الاعتقال والتعذيب ومواجهة القتل، والفرار. تبتعد الكاتبة في سرد تلك الروايات وغيرها عن الإثارة، وتقدم عرضاً موثقاً، يشبه الفيلم الوثائقي، وهذه إحدى ميزات هذا المؤلف. وقد اختارت الكاتبة عنوان المؤلف من عادة تمارسها النساء الإيزيديات لكي لا يبدين جميلات لزومبي البدريستان، فلا يقعن ضحية السبي أو الاغتصاب. النسوة الإيزيديات كن يجرحن أنفسهن في وجوههن وأجسادهن قبل عرضهن للبيع، كالمواشي، كي لا يقبل أحد ابتياعهن. أما أخريات، ففضلن الموت انتحاراً على الاغتصاب أو حياة العبودية. تقول الكاتبة إن بعض النساء قمن بنقش أسمائهن وأسماء أزواجهن وأقاربهن وأرقام هواتفهن على أجسادهن كي يتم التعرف إليهن في حال قتلهن والعثور على جثامينهن. غيرهن قمن بحياكة أسمائهن وأرقام الهواتف الخاصة على ملابسهن الداخلية كي يتمكن من التواصل مع أهاليهن في حال تمكن من الفرار.

هو «العنف البارد» الذي نراه في الحروب. هو عنف الإهانة والحط من الكرامة وعنف النسيان وعنف الاستهتار وعدم الإنصات للمعاناة. بالمناسبة، مصطلح «العنف البارد» اجترحه تيجو كول الكاتب والصحافي الأميركي من أصل نيجيري، خريج «جامعة كولومبيا»، في سياق الحديث عن جرائم العدو الصهيوني بحق الفلسطينيين. الإيزيديون في العراق عانوا العنفين، الساخن والبارد. يكتسب المؤلف أهميته أيضاً من احتوائه روايات عن البطولة في مواجهة وحوش لابشرية وليس قصص استكانة وخضوع الضحية فحسب.

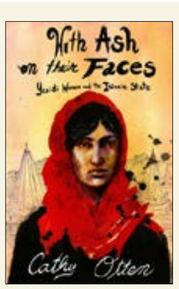

فضلن الموت انتحاراً على الاغتصاب أو حياة العبودية